

2011

جاك بيرك وقضايا المنهج السوسيولوجي

حسن المجاهد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة القاضي عياض ، مراكش

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>

 Part of the [Sociology Commons](#)

Recommended Citation

المجاهيد, حسن (2011) "جاك بيرك وقضايا المنهج السوسيولوجي" *Dirassat*. Vol. 14 : No. 14 , Article 7.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol14/iss14/7>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aar.edu.jo, marah@aar.edu.jo, dr_ahmad@aar.edu.jo.

جاك بيرك وقضايا المنهج السوسيولوجي

حسن المجاهد

أستاذ علم الاجتماع

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش

من أجل إدراك وفهم مقومات المنهج لدى جاك بيرك، لابد من إثارة الانتباه إلى بعض الملاحظات التي تساعد على الإحاطة بنهجه الخاص به خلال توجهاته المختلفة.

ولعل أول ملاحظة تستوجب الذكر، هو أنه لا يجب بأي حال من الأحوال محاولة تصنيفه في اتجاه نظري معين، أو القيام بإسقاطات إيديولوجية أو حصره في خانة معرفية معينة، لأن هذا سيحرم القارئ من إدراك نهجه في عمقه وأصالته وأبعاده المختلفة.

إن القارئ المتسرع لن يجد ضالته في أعمال بيرك؛ ولهذا فإن التخلص ما أمكن من "ديكتاتوريات" الإيديولوجيات ولو مرحليا، يعتبر هو المنفذ الذي لا محيد عنه من أجل النفاذ إلى أعماق النهج البيركي.

لقد كان لا يتقبل مجانا النظريات والمفاهيم المتداولة، مهما بلغت هذه النظريات والمفاهيم من دقة وإغراء؛ بل كان وهو ينهج طريقته الخاصة به الناقد والمجتهد والمبدع، الذي لا يركن لمنطق السهولة، ولا لهيمنة الأفكار والمناهج المتداولة والمألوفة.

أما ثاني ملاحظة، فتتعلق بمقاصد بيرك وتصوره لمسألة المنهج في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية : فالمنهج لا يمكن حصره في إطار نظري معين أو إخضاعه لمفاهيم معينة جاهزة ومسطرة مسبقا، كما أنه ليس بمجموعة من المقتربات أو التقنيات الجافة الصالحة لكل زمان ومكان؛ بل يتجاوز ذلك، ليصبح عملية مجابهة بين الباحث وموضوع بحثه، وتفاعل مستمر، وحوار فعال مما يجعله لنا يتكيف ويتغير بتغيير الواقع.

ينطلق المقترح البيركي مما هو واقعي، من الحدث، من المعاش ومن الإشارات التي تزخر بها الحياة من أجل إعادة الوقائع كثافتها. إن الحياة اليومية بكل رموزها هي المجال الذي يستمد منه فرضياته، حريصا كل الحرص على عدم تشويه الواقع أو ممارسة أي عنف عليه.

وإذا كان المقرب البيركي ينطلق من الواقع، فهذا لا يعني أنه يبقى سجيناً له، إنه يعتبر الظواهر الاجتماعية كأشياء، لكن كأشياء مليئة بالأفكار والرموز؛ مما يجعله ينتقل مما هو مادي ملموس إلى ما هو تصوري ونظري. المقرب البيركي يوظف النظرة العلمية المبينة على الملاحظة، التجربة، المعايشة، والتأمل الفكري، من أجل صياغة الوقائع والأحداث.

ويبقى "المعاش الجماعي"⁽¹⁾ Vécu Collectif في أبعاده المختلفة إحدى المقومات الرئيسية التي يقوم عليها المنهج لديه. يتساءل بيرك بهذا الصدد قائلاً: "من أين يمكن لأي باحث في العلوم الإنسانية أن ينطلق ما عدا المعاش الجماعي؟ إنها عملية اعتداء متبادلة. فعندما نتحدث مع شخص ما فإن النظر يتجه إلى محياه (...). فعندما نتحدث لشخص فإننا لا نتحدث مع هيكل لكن مع تعبيره، ونفس الشيء بالنسبة لدراسة المجتمعات؛ هذا مع العلم أن لكل تعبير حوافز ودوافع.

وباختصار، كواقع لا يقل عن ذلك المعطى الأولي (...). لأن البحث في العلوم الاجتماعية يجب أن يثبت تلك المواجهة كنقطة انطلاق ووصول في نفس الوقت، عندما ننطلق من المعاش الجماعي فإننا نبحت بطريقة مشروعة عن التمييز بين ما يخفيه وربما يرتكز عليه⁽²⁾."

إن هذا الموقف المنهجي لدى بيرك إزاء الظواهر والقضايا التي تناولها يحدد النهج الذي اعتمده خلال أبحاثه ودراساته المتعددة والمتنوعة⁽³⁾. لقد كان يهدف من خلال هذا إلى تجاوز ما آلت إليه العلوم الاجتماعية آنذاك بحيث كانت تثن تحت وطأة الإيديولوجية السائدة والمهيمنة، التي ما فتئت تعمل على تشويه الواقع بإخضاعه لمفاهيم اختزالية وطمس مكوناته ومقوماته المختلفة.

لتفادي المنزلقات التي عملت على "نمذجة" الواقع في قوالب فكرية جامدة، يقوم النهج البيركي على الابتعاد ما أمكن عن الأفكار المسبقة والموروثية، بحيث لم يكن همه وسعيه هو إفراز نظريات ومفاهيم، بقدر ما كان يعمل على الإنصات للواقع وملاحظته في تفاعلاته وتجلياته المختلفة.

(1) يكتسي هذا المصطلح أهمية بالغة كدعامة أساسية للمنهج البيركي الذي يعتبر الواقع هو المحك الأولي والأخير لكل معرفة سوسيولوجية.

(2) - Jacques Berque : Arabies. Paris, Edition Augmentée. Stock, 1980, pp :80-81.

(3) لقد ترك جاك بيرك بعد وفاته سنة 1995 إنتاجاً فكرياً ضخماً من بحوث ومقالات وكتب وحوارات... إلخ.

إن التخلص من الأحكام المسبقة يعطي معنى خاصا لعملية الإنصات للواقع لدى بيرك؛ فهذا الإنصات يستوجب، أولا وقبل كل شيء، "احترام" موضوع المعرفة. واحترام موضوع المعرفة هذا، يستوجب التآني في إصدار الحكم وعدم المجازفة الفكرية. ولعل هذا ما يوضحه محمد بوغالي عندما يكتب قائلا : "نادرا ما نصادف في أعمال بيرك تعريفات حاسمة للظواهر الاجتماعية أو التاريخية المتعلقة بالعالم العربي قبل قيامه بإجراءات أولية، ومطولة للإحاطة بها في خصوصيتها الأساسية(4)".

لقد كان بيرك حريصا كل الحرص على عدم خلط الذات العارفة بموضوع المعرفة، بحيث كان المحاور والدارس الغير المجامل للإنسان العربي خلال مسيرته الفكرية كلها(*) .

جل أعمال بيرك تخترقها شكوك وتساؤلات ورغبة ملحة وتفاؤل مستمر اتجاه القضايا التي تناولها : فهو لم يكن يسعى إلى البحث عن صيغ نهائية يركن إليها بقدر ما كان يسعى إلى استجلاء الواقع في غناه وتعددته.

هذا النهج الذي ما فتئ يطوره، خلال مسيرته الفكرية برمتها، يعطي لمسألة الموضوعية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية دلالات خاصة: فهي لا يجب أن ترد إلى تطبيق مجموعة من التقنيات الباردة والجافة على واقع معين بدقة وصرامة ولا يمكن أن تتجلى في الخضوع لأمهات النظريات والمفاهيم المتداولة، لأن هذه الأخيرة تخضع لمنطق النسق بدل منطق الواقع.

إن الموضوعية في أعمال بيرك هدف استراتيجي، تستوجب التآني في إصدار الحكم، تستوجب ذهابا وإيابا مستمرين بين الذات العارفة وموضوعها، تستوجب تعددية المقترحات من اجل العمل على إبراز الواقع في تنوعه وتعدده وتناقضاته، ويوضح أندري ديميرسمان هذا قائلا : " قبل كل شيء ندرك تلك الشهية المتعطشة للموضوعية في إشكالية نسجت خارج الطرق المسطرة والتي ساعدت المرور بعيدا عن حدود التخصصات وتقسيم الأجناس لالتهاق بالواقع في بعده المحلي والعالمي. بأكثر ما يمكن من التجريد والحياة، يوقد جاك بيرك النار بجميع أنواع الحطب، متأرجحا باستمرار بين التجريد والتجسيد، بين التجسيد والتجريد، مغذيا بنفس الدرجة، ومازجا بين العلم

(4) M.Boughali : Jacques Berque ou la saveur du monde Arabe. Rabat, Ed, La Porte, 1995 p : 4.

(*) لقد قضى بيرك مدة زمنية لا يستهان بها، بدءا بالمغرب العربي مرورا بمصر، كإداري وكباحث قبل التحاقه بكوليج دو فرانس سنة 1956 .

والتجربة، والتجربة والعلم، المضمون والشكل، ومحتفظا بدون حسرة بمكانة لا ثقة للشعر، للرمز، للحلم والطوباوية⁽⁵⁾.

ما لبث بيرك من خلال مسيرته الفكرية برمتها يسائل العلوم الاجتماعية في منطلقاتها ومناهجها وتصوراتها، مسلحا في ذلك بموسوعية لا محدودة وبتجربته الغنية الفريدة من نوعها.

إن الواقعية السوسيوولوجية التي تميز النهج البيركي جعلته في منأى ومأمن عن كل ما هو اختزالي وتصوري: جعلته يسلك الطرق الشاقة والغير المألوفة من أجل إدراك الواقع في غناه وفي تعدديته المختلفة وفي كثافته.

إن واقعيته هذه لا يمكن أن ترد إلى موقف تجريبي محض يتعامل مع الظواهر الاجتماعية بطريقة ميكانيكية وجافة، ولا يمكن أيضا أن ترد إلى موقف فينومينولوجي يقف عند قشرات الأشياء ومظاهرها؛ بل تتعدى كل هذا، لتصبح عملية ذهاب وإياب، انطلاق وعودة، من أجل إعادة الوقائع كثافتها، وتتبعها في أبعادها المختلفة.

لقد كان ينطلق من الواقع في تجلياته المختلفة ومن الحدث الساخن ومن المعاش بالرموز والإشارات، لأنه كان مقتنعا أشد الاقتناع، أن الحياة أو المعاش الجماعي لا يمكن إخضاعها إلى عموميات وإلى تجريدات، بل أكثر من ذلك، يلح على إطاعة الحياة "لأننا متعطشين إلى أصلاتها"⁽⁶⁾ كما يقول.

يميز بيرك بين ما هو خاضع للتحليل وبين ما هو معاش أي واقعي، لأن التحليل إذا كان يؤدي إلى الفهم فإن المعاش الجماعي يبقى هو الوسيلة الفعلية للاختبار، أما التحليل فيبقى دوما اختزاليا، وبالتالي لا فائدة من وراء العلم والصيغ بدون احتكاك مع المعاش⁽⁷⁾.

إن هذا التمييز بين التحليل والمعاش هو في نهاية المطاف تمييز بين النظرية والواقع. ما لبث بيرك يتساءل، و بإلحاح، في بحث دقيق عن الموضوعية، التي لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن يمدنا بها التحليل النظري عن طريق المفاهيم؛ بقدر ما تمدنا بها المعاشة والاحتكاك الجسدي، ومجابهة الواقع؛ ولعل هذا ما يميز تصور بيرك لمسألة المنهج خلافا لما هو متداول ومعتاد.

(5) André Demersseman : « Berquisme ou Approche du Réel » in Rivages et désert, Hommage à J.Berque, Ed.Sindibad, 1988, p : 250.

(6) Jacques Berque : Dépossession du monde. Paris, Ed. Seuil, 1964, p :119.

(7) Jacques Berque : de l'Euphrate à L'Atlas , Paris, Ed. Sindibad, Tome 2, 1978, P :682.

إن تركيزه على ضرورة الالتزام بالمعاش الجماعي، كنقطة بدء ووصول عن طريق الملاحظة بأنواعها، والاحتكاك الجسدي والمجابهة؛ يعتبر إطارا مرجعيا لن يحيد عنه . ويتضمن هذا المعاش أبعادا عديدة وأنماطا مختلفة محددة بسيرورات تاريخية في تفاعلاتها الداخلية والخارجية؛ فهو يعتبره، لا كمعطى مسبق قائم بذاته ولذاته، بل يعتبره كإفرازات لتفاعلات الإنسان بمحيطه الطبيعي والاجتماعي في بعده التاريخي والأنثربولوجي.

بهذا يتميز المقرب البيركي عن غيره وأساسا عن الأنسقة الفكرية النهائية التي تهتم أكثر بمدى انسجام تصوراتها ومفاهيمها و منطلقاتها؛ وبطريقة اعتبارية تصبح موجهة ومحددة للسلوكات الاجتماعية للأفراد والمجتمعات.

إن بيرك لا ينطلق من قنليات لأنه لا يسطر نتائج بحثه مسبقا؛ ولكنه يرغب في مسايرة الواقع والإمام به ما أمكن في غناه وتعدديته و حركيته. ولهذا ما فتئ يعمل على زعزعة منطلقات مفاهيم العلوم الاجتماعية لمختلف النظريات السوسولوجية التي تطمح إلى الهيمنة على الواقع وإلى توجيهه لمقاصد نظرية وإيديولوجية معينة.

إن قيمة الفرضية العلمية تكمن، ليس في انسجامها أو في مفاهيمها المستعملة، بل على العكس من ذلك، تكمن في مدى مطابقتها للواقع، ويلح بيرك على ذلك قائلا "على العكس، إن قيمة الفرضية العلمية، تكمن في مطابقتها للواقع، لأن مهمتها ليس هو خلق عالم بديل، ومماثل بدقة متناهية، لكن، وبطريقة تلدبية معارضة للعالم "الحقيقي"، ولكن المهمة تكمن في النفاذ وولوج ما هو أعمق وما هو أكثر دقة لهذا الأخير(8)".

لا يريد بيرك من خلال موقفه المنهجي هذا أن يجعل الفرضية عملية تحصيل حاصل أو عملية مغرضة؛ بل يريد منها أن تكون مفتاحا لإدراك مقتضيات الواقع؛ ووسيلة نظرية يجب أن لا تقوم باختزاله؛ بل يجب أن تساعد على إدراكه في غناه وتعدديته وأبعاده المختلفة، وبالتالي فهو لا يخضعها لقبليات ولا لشروط مسبقة أو لأنماط تحليلية معينة.

إن هذا المنهج الذي ما فتئ بيرك ينميه ويغذيه من خلال مسيرته الفكرية يجعلنا نفهم لماذا عمل، وباستمرار، على نسج فرضياته الواحدة تلو الأخرى بحذر ورزانة ونزاهة قل نظيرهم.

(8) Jacques Berque : Dépossession du monde. p :33.

كما أنه يجعلنا ندرك جيدا لماذا كان يلجأ إلى تحيينها رغبة في مواكبة الواقع ومسايرته مدمجا المستجدات والإفرازات التي تطفو على السطح من حين لآخر.

إن هذا التمسك والالتزام بالواقع والمعاش الجماعي، وبمواكبته من خلال فرضيات إجرائية ومطابقة له تعبر عن إيمانه بأن هذا النهج يجنب مخاطر التوجهات التي لا تسعى إلا إلى نحت صيغ جامدة وباردة، "لأن غنى الواقع ينتقم من كل أنواع الضياع الناتجة عن صرامة الإجراء المفروض"⁽⁹⁾ كما يقول.

لقد أدرك محمد بوغالي أهمية هذا النهج البيركي مما جعله يسطر بقوة أهميته قائلاً: "انه لحقيقة، وفي عدد كبير من الحالات، أن تسرع النظريات والتصورات التي تبدو مظهرها كأنها منسجمة تمنع من إعادة ثقل عمق المعاش المدروس، إن خسائر النظريات تعتبر أحيانا حواجز حقيقية تخفي الجزئيات الدقيقة التي يكتزها الواقع وقيمة الخصوصية لمكوناته الإنسانية. إن الحذر الاستمولوجي لدى بيرك اتجاه محاولات النظريات لاختزال الحقائق الاجتماعية المعاشة في صيغ وصور مطمئنة، تجد تبريرها، حقا، لعدد كبير من النقط...ولكن، لأن المشكل المركزي للنهج لدى بيرك يكمن، ليس في إعادة التفكير حسب ما يناسبنا لدينامية الواقع الاجتماعي، ولكن الوصول أولا وقبل كل شيء، إلى التفكير بطريقة تساعدنا على إدراكه في تفاعلاته وحركيته الساخنة"⁽¹⁰⁾.

إن المعاناة المنهجية والهموم التي تتخلل المقترحات البيركية مهما تعددت المواضيع وتنوعت، تعتبر رافدا مركزيا لجل أعماله؛ فهي لا تعنى بتاتا التهرب من التجريد أو تقمنا في مثالية ساذجة أو تدخلنا في متاهات لا حصر لها؛ ولكنها، وأساسا، ترفض القفز على الواقع وترفض اختزاله في صيغ جامدة وقوالب فكرية فوقية.

إن التزام بيرك بعدم الانصياع لما هو متداول ومألوف ينبثق من إيمانه الراسخ بأن مهمة العلم هي الكشف عن مقومات الواقع وعدم التسرع في الحكم عليه وأساسا، تكمن مهمته، في عدم المجاملة والمساومة.

لهذا ما لبث بيرز ذلك ويرده قائلاً (...): "لا أقبل بتاتا العلم الذي يكبل نفسه والفضل الشبه - علمي. أعتقد أقل من أي كان أن العلم يجب أن ينحصر في برج من العاج ولا الفعل يمكن أن يستغني عن وثائق موضوعية، بل العكس تماما؛ ولكن ألاحظ أنه في كثير من

(9) Jacques Berque : Dépossession du monde. p :33.

(10) M. Boughali : Jacques Berque ou la saveur du monde Arabe. p : 2.

الحالات، هناك خلط واصطدامات تجد من يدعوننا إليها؛ أما أنا فلا أريد علما مجاملا يبرره الفعل ولا فعل دوغمائيا تحت لون العلم⁽¹¹⁾.

عندما يرفض بيرك التصورات والنظريات الدوغمائية، فهو أولا وقبل كل شيء يرفض صيغها الجامعة والمانعة ولا يستسلم أمام نتائجها النهائية القارة والجامدة ولا يخضع بتاتا لإجراءاتها التقنية والعملية ولا يتقبل على الإطلاق مراميها الايديولوجية.

لكن هذا لا يعني أن بيرك قد لا يلجأ لبعض الفرضيات والمفاهيم التي تتداولها العلوم الاجتماعية كمنطلق يتقبله مرحليا أو يستعمله لاختباره لمعرفة مدى مصداقيته ومدى مطابقته للواقع.

لا يتوارى بيرك في استعمال كل ما يمكنه من النفاذ إلى أعماق الظاهرة، بشرط أن يكون الواقع هو المحك الأولي والأخير ولعل هذا ما يجعل إشكالياته المنهجية والفكرية لا تخضع لعملية تركيب سهل المنال: إن الإطار الاستمولوجي والفكري الذي يتحرك فيه ينطلق من نظرية تطبيقه للواقع والمعاش. وباستمرار، إلى البحث الدؤوب من أجل إبراز خصوصية وعمق الظاهرة التي يتناولها.

إن ليونة مقترباته تستمد مصداقيتها من واقعيته السوسولوجية التي تسعى إلى إدراك الواقع في عمقه وتجلياته وأبعاده المختلفة، لأنها تتغير بتغيير الواقع،⁽¹²⁾ كما أن هذه الليونة والتعددية في المقتربات تنطلق من تصور بيرك لمفهوم الحقيقة : ولعل هذا ما جعله يسطر أنه لا يمكن إلا أن تكون متعددة⁽¹³⁾ وإلا لن تكون كذلك⁽¹⁴⁾.

كما أن هذه الليونة تستوجبها تعددية المواضيع وتنوعها ولهذا فهو لم يخضع إلى منطلق التخصصات المعرفية ولا إلى تقسيم الأجناس، بل وظف كل الإمكانيات المعرفية المتاحة من أجل فهم الظواهر الاجتماعية في عمقها وشموليتها؛ إنه النموذج العملي لتعددية التخصصات، بل أكثر من ذلك، يعتبر مناضلا في مجال العلوم الاجتماعية؛ وردا على سؤال حول هل هو عالم اجتماع أو مؤرخ أو أنثروبولوجي أو لساني، أو أديب أو شاعر؟

(11) Jacques Berque : p :268

(12) J. DuVignaud : « ce que l'on doit à Berque.. » In Rivages et Désert, p :264

(13) Jacques Berque :Arabie. p :99

(14) تجدر الإشارة هنا إلى إثارة هذه الملاحظة من أجل فهم النهج البيركي وأسلوبه الخاص، وتوجهاته المختلفة، والتي تتجلى في كونه منذ ولادته بالجزائر عاش تجارب مختلفة ومتنوعة ثقافيا وحضاريا مما جعله يدرك أهمية التعدد والتنوع، أكثر من ذلك فهو من أب فرنسي وام اسبانية، يوضح ذلك بتفصيل في كتابه :

Mémoires des deux rives. Paris, Ed. Seuil , 1989, pp : 7-24

أجاب قائلًا : "إنني أحاول أن أحصل من الأشياء ومن الكائنات ومن المواقف أيضا، على معرفة كلية (...) المجازفة تكمن في ضياع الخيط الرابط لعملية تركيب مستقبلية، لا أقول بدمج أو بخلط، لأن هذا يؤدي إلى تهديم الشخص المزدوج (...) ولهذا فإن الدراسة الحالية الحسية والروحية التي أتمنى توافقها في حياتي دون الخلط بين الشخصيات والأنماط، يزكي بطريقة أو بأخرى جدلية الواحد؛ الثنائية والتعددية التي تلاحقني. نعم، جدلية تعبر عن كل هذا، بشرط أن نقر أن هنالك جدليات متعددة بدل جدلية ثنائية" (15).

لقد كان بيرك حريصا كل الحرص على عدم الخلط بين موضوع المعرفة والذات العارفة لأن هذا الخلط هو الذي يؤدي إلى فقدان الموضوعية. أما مسألة اعتماد منهج تداخل التخصصات interdisciplinaire فقد اهتدى إليه عن طواعية لأنه يناسب مزاجه وأسلوبه وتوجهاته. وبالرغم من ذلك فهو لا ينكر إسهامات الآخرين (*) وأساسا مدرسة الحوليات الفرنسية، ولقد عبر عن هذا قائلًا " : هذا المنهج الذي يعتمد تداخل التخصصات، لو لم ينبثق من المجهودات المبذولة والمتكاملة لعدد من الباحثين، أساتذتي وزملائي، لما عملت على ابتكاره بنفسي (...) إنني في أعمالي أنثروبولوجي أو أحاول أن أكون كذلك، مؤرخا... الخ؛ لأن الواقع متعدد الأبعاد" (16).

لم يكن هم بيرك هو الخوض في نقاشات أكاديمية حول الإشكاليات والحدود بين مختلف التخصصات؛ بقدر ما كان همه هو العمل، وبكل الوسائل، من أجل الإلمام بالواقع، فهو لم يتردد في تنويع المقترحات وفي الاعتماد على المنهج الذي يعتمد تداخل التخصصات واثقا كل الوثوق أن موقفه هذا المنسجم مع أسلوبه الخاص به، يساعده على تجنب أي انتقائية تقوم على تهميش وازدراء وتجاوز جوانب معينة من الواقع.

الكل لدى بيرك يتساوى، إن أي جزئية من أجزاء الواقع تكتسي أهمية من أجل النفاذ إلى أعماقه، وكأنه يسعى إلى تذويب الفروق بين ما هو تجريدي وما هو ملموس، بين ما هو ميكروسوسيولوجي وماكروسوسيولوجي، بحيث يعبر عن هذا قائلًا : "بعد التخلي عن منهج "المخبر" المشكوك فيه، وعلى منهج الاستثمارات : "ترك الأحداث والمشاكل تأتي إلي (...) " (17).

(15) Mémoires des deux rives. Paris, Ed. Seuil , 1989, pp : 7-24

(*) المقصود هنا : F.Braudel, A. Lefebvre, Marck Block

(16) Jacques Berque : Arabie. pp :100-101.

(17) Jacques Berque : structures Sociales du Haut Atlas, suivi de Retour aux Seksawa. Par J. Berque et Paul Pascon, Paris, 2ème Edition revue et augmentée. P.U.F, 1978, p :9.

كل حدث وكل مشكل لا يمكن الاستهانة به مادام أنه ينتج عن المعاش الجماعي، ومن تفاعلات الأفراد والجماعات داخل المجتمع؛ ومهما تعددت المواضيع والمقتربات التي يعتمدها فالإنسان يبقى هو هدف البحث والدراسة.

وهذا ما أكده أندري ديمرسمان قائلًا (...): "إن أهم التطورات للأفكار والتخمينات" البيركية "بمواضيعها الكبرى، وبهامش تذبذباته وتردداته تجعل موضوعها المجتمع والمجتمعات. ولكن، ضروري أن نضيف أن الشخصية الإنسانية دوما حاضرة في كل مراحل أبحاثه"⁽¹⁸⁾.

إن إدراك مقومات الشخصية الإنسانية في بعدها الأنثروبولوجي والتاريخي، في بعدها المحلي والعالمي، في تفاعلاتها المجتمعية والبيئية، لن يتوانى بيرك، من أجل ذلك، في هدم الحدود بين مختلف العلوم الاجتماعية وباختصار بين كل العلوم حيث يؤكد قائلًا: "إنني لا أعني ب"سوسيولوجيا (...)" شيئاً مقيدا ولكن، بمعنى واسع، هي دراسة المجتمعات كما هي. فبدءا بالتاريخ الذي ينطلق من زاوية الزمان، والجغرافية التي تعتمد مفهوم المجال، واللسانيات، إلخ... السوسيولوجيا تتميز بمسعاها التركيبي الذي جعلها تستفيد من إسهامات العلوم الأخرى، وبتركيزها على توجيه هذه الإسهامات إلى تحليل الظاهرة الاجتماعية"⁽¹⁹⁾.

ما لبث بيرك يندد بكل المواقف المتحجرة والتي تسعى إلى تفتيت وتجزئة السلوك الإنساني باسم التجريبية المحضة. وما لبث يندد كذلك بالتفسيرات الأحادية الجانب، هادفا إلى جعل مهمة العلوم الاجتماعية مهمة نضالية لإدراك الواقع في عمقه وطرح الإشكاليات الجديرة بالاهتمام ويسطر هذا بإلحاح عندما يقول (...): "لهذه العلوم نطلب في نهاية المطاف، طرح المشاكل الحقيقية، ومن ثمة، الحلول الحقيقية، إن تخصصاتنا يجب أن تناضل جميعها على مستوى المفهوم وتطبيقاته، وعلى مستوى الفكرة والتجربة"⁽²⁰⁾.

إن هذه المهمة النضالية للعلوم الاجتماعية هي عملية عبور، وباستمرار، عملية ذهاب وإياب، من المنهج الاستنباطي إلى المنهج الاستقرائي بعناية فائقة وبتفاؤل مستمر.

(18) André Demersseman : « Berquisme ou Approche du Réel » in Rivages et désert, Hommage à J.Berque, Ed.Sindibad, 1988, p : 256.i

(19) Jacques Berque : « cent Vingt Cinq ans de Sociologie Maghrébine ». In Annales ESCM, XI(3), 1956, p : 322.

(20) J. Berque : « sciences Sociales et décolonisation ». In Revue Tiers –Monde, 1962, p :1.

لا يتوقف بيرك أمام الصعوبات والمخاطر وانعكاسات نتائج البحث، لأن موقفه التفاضلي إزاء الظواهر يجعله يتحدى كل الصعوبات والعوائق كيفما كانت طبيعتها ونتائجها، قائلاً (...)" لا يمكن للحقيقة أن تكون مرة؛ ولكن هذه المرارة تتراجع أمام إرادة المعرفة، أي الوجه الآخر لإرادة العيش، وأمام الأماني العادلة لتاريخ لازال بين أيدينا لعدة اعتبارات"(21).

إن هذا الموقف المنهجي، الذي يقوم على التفاضل المستمر، يبرز مدى التزام بيرك كعالم وكفكر وكرجل عمل وممارسة. ولعل هذا ما جعله يتموقع ضد كل النزاعات التشاؤمية التي لا تغدو أن تكون في نهاية المطاف إلا مواقف استسلامية وانتهازية. إن مشروع بيرك الفكري جعله ينغمس في الحياة لا كمستهلك بل كناقذ وكمبدع وكملتزم فكرياً وأخلاقياً.

ما فتئ بيرك يدافع عن مشروعه وعن نهجه وأسلوبه المتميز بفك الحصار عن العلوم الاجتماعية واثقا بالتقدم والتطور ب"العلم"، وبالرغم منه(*)؛ بعيداً كل البعد عن منحى الأنسقة الفكرية النهائية، لأنها تقوم، ليس فقط على الاختزال والتصنيف والتعميم ولكن أيضاً لأن الحالة الراهنة للعلم لا تسمح بذلك.

إن كل نسق يؤكد بيرك يبقى بالضرورة مجرد رأي معين مقابل آراء أخرى لها ما يبررها كذلك (22).

لهذا عمل وبقوة على تنفيذ وانتقاد وهدم مرتكزات ومنطلقات ما يسميه ب"العلم الجاهز"(23) الذي يسعى إلى تطويق الواقع ومحاصرته؛ لأنه كان يسعى من أجل العلم في حالة تكونه la science faisant؛ ويؤكد هذا بعد التحاقه بكوليج فرنسا عندما يقول: "كثير من أساتذة الأدب يراهنون على التقييد من داخل النصوص، أما أنا، فإنني مدين للوقائع والملاحظات المعاشة"(24).

(21) Jacques Berque : « cent Vingt Cinq ans de Sociologie Maghrébine ». p : 324.

(*) المزدوجتان لجاك بيرك.

(*) لقد عمل بيرك على ترديد هذه الصيغة في مناسبات عديدة، ولعل موقفه هذا يستشف منه مدى نفوره لما آلت إليه العلوم الاجتماعية من تشويه للواقع، إنه من خلال هذا يسعى إلى استفزاز كل نزعة فوقية تركز لمنطق السهولة، فالعلم بالنسبة إليه هو الوسيلة التي يجب الاعتماد عليها، لكن كوسيلة هادفة للتحصين من كل ما يهدده ويجعل منه أداة تبريرية ومغرضة.

(22) Jacques Berque : de l'Euphrate à l'Atlas, T.2, pp : 685-686.

(23) Jacques Berque : Mémoires des deux rives. Paris, Ed. Seuil, 1989, p : 170.

(24) Ibid, p : 171.

نستشف هنا مدى جرأة بيرك في فرض أسلوبه ونهجه الخاص، لأنه لم يعد راغبا في اجترار وإعادة ما هو مألوف ومعتاد، مما جعله يكتسب سلطة فكرية أساسها الواقع والتجربة والملاحظة والمعاشية. فإذا كانت الموضة تستوجب الاستشهاد بأمتهات النظريات، فإن بيرك كان مسلحا بتجربته الغنية وقدرته على توظيفها في مقارعة المعتاد والمألوف.

فلا غرابة، إذن أن نخلص إلى أن مسألة المنهج لديه لا يمكن حصرها. ولا فائدة من تصنيفها في خانة معينة، بل يجب لفهمها وإدراكها في تعدديتها وفي تنوعها، في مراميها وأبعادها التي تسعى أساسا للاحتكام إلى الواقع في غناه وتعدديته، بدل القفز عليه⁽²⁵⁾..

لقد كان بيرك يناضل من أجل اكتساب منهج والتحكم فيه بدل الانصياع والانقياد لمنهج معين، و لقد عبر عن ذلك حيث قال (...): "إني كنت أجرب على نفسي أنني أمتلك منهجا بدل أن يمتلكني منهج ما"⁽²⁶⁾.

(25) J. Berque : « Pour une étude des sociétés orientales contemporaines». In Correspondance d'Orient Bruxelles, 5, Sept, 1961, pp :87-90.

(26) Berque : Arabie, p :101.